

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

دَارُسُتُ الْإِسْلَامِيَّةُ

مجلة علمية سنوية محكمة



العدد الرابع عشر / ١٤٤٢ هـ / ٢٠٢٢ م

مُصادر التلاقي عند الصوفية و موقف ابن القيم منها

د. شمس الدين الفكي محمد الحسن

الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب - جامعة الخرطوم

د. هنادي عيسى عبد المحمود عيسى

الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب - جامعة البحر الأحمر.

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم

(١٣٦-١٠١)

المستخلص :

يتناول هذا البحث موضوع مصادر التلقى والاستدلال عند الصوفية مقارنة بموقف أهل السنة الآخرون منها الذين يمثلهم ابن قيم الجوزية ، ويهدف إلى بيان مواضع الخلاف فيها وموقف ابن القيم الذي تبناه حولها ، والمنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج التحليلي. ويتعرض البحث لمصادر الصوفية في التلقى ، التي خالفوا فيها بقية أهل القبلة وهي الكشف والذوق والوجود والإلهام والفراسة ، فيتناول مذاهب الصوفية وفهمهم لهذه الأشياء ومدى اعتمادهم عليها أدلة شرعية تقوم عليها العبادات وجميع أمور الدين ، وأثر ذلك على فقههم ، مما جعل الخلاف كبيراً بينهم وبين أهل السنة. واختتم بحصر مواضع النزاع بين الصوفية وموقف أهل السنة من هذه الأمور. وخلص إلى نتائج منها أن هؤلاء الصوفية يُضفون على إلهاماتهم وكشوفهم العصمة والقداسة ، فهي الصواب الذي لا يتحمل الخطأ بحال ، على خلاف أقوال الأئمّة المجتهدين التي تحتمل الخطأ والصواب.

الكلمات المفتاحية : الصوفية ، مصادر التلقى ، الكشف ، الذوق والوجود ، الفراسة ، الإلهام ، ابن القيم.

Abstract:

This research deals with The subject of the sources of knowledge reception in sufism compare to the position of other Sunnis represented by Imam Ibn al-Qayyim al- Jawzi towards these sources. The method that followed in this study is the analytical method.

The Research examines the sources of sufi knowledge in the cognitive reception in which they differed from the rest of the people of the qiblah namely: unveiling (kashf), taste (dhawq), ecstasy, inspiration (ilham) , and physiognomy (firasah)

The Research deals with the sufi doctrines and their understanding of these sources, and The extent of their reliance on them as legal evidence upon which worship and all religious practices are based, and The impact of that understanding on their jurisprudence, which made a great difference between them and the rest of the Sunnis.

The study concluded with a set of results, including that the sufis bestow on their inspiration infallibility and holiness; for they consider these inspirations as the right that cannot be wrong in any case unlike the sayings of the assiduous Imams which bear the right and wrong.

مقدمة :

تعددت مصادر التلقي والاستدلال عند أهل السنة وتنوعت ، لكنها ظلت منضبطة بضابط الشرع ، وانقسمت إلى - مصادر أصلية أربعة وهي : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، ومصادر فرعية : تمثل في الاستحسان والاستصحاب والمصلحة المرسلة والذرائع وعمل الصحابي والعرف وشرع من قبلنا ، مما بني على العقل الصحيح ، والفطرة السليمة.

وقد جعل أهل السنة والجماعة للعقل منزلة عظيمة ومكانة رفيعة ؛ كيف وقد رفع الإسلام منزلته ، واعتنى به عنابة فائقة ، وقامت الإشارة إليه في القرآن الكريم في مواضع وإشارات كالتفكير ، والاعتبار ، والتذكرة ، والتذكرة ، والنظر إلى مخلوقات الله تعالى ، فكل ذلك لا يكون إلا بالعقل.

وأهل السنة والجماعة لم يقدّموا العقل على الغيب ، ولم يجعلوه حاكماً على النصوص الشرعية ، ولم يفترضوا التعارض بين العقل والنقل ، بل ذهبا إلى أن العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح ، وفي الوقت نفسه لم يهملو العقل أو يقلّلو من شأنه ، بل استعملوه فيما يوافق الشرع ويعضده.

يقول أبو المظفر السمعاني مقارناً بين موقف أهل السنة وبين المبتدةعة من العقل : ”واعلم أنّ فضل ما بيننا وبين المبتدةعة هو مسألة العقل؛ فإنهم أسسوا دينهم على المعقول ، وجعلوا الاتّباع والتأثير تبعاً للمعقول ، وأئمّا أهل السنة فقالوا : الأصل الاتّباع ، والعقول تبعُ ، ولو كان أساس الدين على المعقول؛ لاستغنى الخلق عن

الوحى ، وعن الأنبياء صلوات الله عليهم ، ولبَّطَلَ معنى الأمر والنهي ، ولقال مَنْ شاء ما شاء ”^(١).

فالعقل مصدر من مصادر التلقي والاستدلال عند أهل السنة ، به تفهم النصوص ، وتنسب إلى الأحكام ، وتحرج الفروع على الأصول ، وتسقط النصوص على الواقع ، وتعطيل العقل يعني انتفاءِ أهليةِ الإنسان للفتوى والفقه والعلم؛ فالعقل شرطُ أساس التكليفات الشرعية ، إذ يسقط عن الإنسان غير العاقل التكليفُ الشرعي.

وأهل السنة لم يغالوا في العقل مغالاةً غيرهم ، حيث عرروا حدوده فالتزموها ولم يتعدوها ، وجعلوه تابعاً لنصوصِ الْوَحْيِ ، وليس العكس كما عند غيرهم ، إذ أنَّ النص مقدم على العقل ، ولذا قالوا: ”لا اجتهاد مع نص“.

والفطرة السليمة دليلها مأمورٌ من قوله تعالى: ﴿فَآتَمْ وَجْهَكَ لِلَّدِينِ حَنِيفًا فَطَرَ اللَّهُ أَتَيَ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِقُلُوبِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم : ٣٠] ، وقوله ﷺ: ”مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ؛ فَأَبْوَاهُ يُهُودَانِهُ أَوْ يُنَصَّرَانِهُ، أَوْ يُمَجَّسَانِهُ“^(٢).

والمقصود بقوله ﷺ: ”يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ“ : هي ما أخِذَ عليهم في أصلاب آبائهم ، وأنَّ الولادة تقع عليها حتى يحصل التغيير بالأبوين. والمراد من الحديث : أنَّ الله

^(١) السمعاني ، أبو مظفر ، متصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المرزوقي السمعاني التميمي الحنفي بن الشافعي [ت ٤٨٩هـ] ، الانتصار لأصحاب الحديث ، تحقيق محمد زهير بن حسين بن حسن الجيزاني ، مكتبة أضواء المنار ، السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م. ص. ٨٢.

^(٢) البخاري : الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري المؤلف : محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي ، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية ، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٢هـ) ، حديث رقم (١٣٥٨) ج ٢ ، ص ٩٤ . و مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ب.ت ، حديث رقم (٢٦٥٨) : ج ٤ ، ص ٢٠٤٧ . ولللهذه للكتاب.

تعالى فَطَرَ النَّاسَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْفَطْرَةُ قَدْ تُغَيِّرَ وَتُبَدَّلَ بِحَسْبِ التَّنْشُّئَةِ وَالْتَّرْبِيَّةِ .

وَكَوْنُ الْفَطْرَةِ مَصْدِرًا مِنْ مَصَادِرِ التَّلْقِيِّ وَالْإِسْتِدَلَالِ عِنْدَ أَهْلِ السَّنَةِ لَا يُقْصَدُ بِهِ أَنَّهُمْ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ دَلِيلًا عَلَى مَسَائِلِ الاعْتِقَادِ أَوِ الْعِبَادَاتِ؛ فَالْفَطْرَةُ لَا تَصْلِحُ لِذَلِكَ عَلَى الإِطْلَاقِ ، وَلَمْ يَقُلْ بِهَذَا القَوْلِ أَحَدٌ مِنْ قَبْلِهِ .

غَايَةُ مَا هَنالِكَ : أَنَّ الْفَطْرَةَ الْمُوْجَودَةَ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ قَابِلَةٌ لِالْاعْتِنَاقِ الْحَقِّيِّ وَالْإِيمَانِ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مُتَوَافِقٌ مَعَ طَبِيعَتِهَا وَمَا جُبِلتْ عَلَيْهِ .

وَمِنْهُجُ أَهْلِ السَّنَةِ فِي التَّلْقِيِّ أَنَّهُمْ يَعْتَصِمُونَ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ فِي كُلِّ شَؤُونِهِمْ ، مُتَّبِعُونَ لِلْمُحْكَمِ ، مُؤْمِنُونَ بِالْمُتَشَابِهِ ، وَلَا يُعَارِضُونَ النَّصوصَ بِالْعُقُولِ الْبَشَرِيَّةِ .

قَالَ ابْنُ تِيمِيَّةَ - رَحْمَهُ اللَّهُ : " وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ فِي أَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثَيْنِ مَوْضِعًا مِنَ الْقُرْآنِ ، وَقَرَنَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ ، وَقَرَنَ بَيْنَ مُخَالَفَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ ، كَمَا قَرَنَ بَيْنَ اسْمِهِ وَاسْمِهِ ، فَلَا يُذَكِّرُ اللَّهُ إِلَّا ذُكِّرَ مَعَهُ " .^(٣)

وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَالسَّنَةُ النَّبُوَيَّةُ هُمَا مَصْدِرُ التَّلْقِيِّ وَالْإِسْتِدَلَالِ الْأَوَّلِ عِنْدَ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ فَمَنْ خَلَالَ نَصوصَهُمْ عَرِفَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَعَرِفَتْ شَرِيعَتُهُ وَكِيفِيَّةُ عِبَادَتِهِ ، وَعَرِفَتْ أَخْبَارُ الْأَمَمِ السَّابِقَةِ وَالْقَرْوَنِ الْمَاضِيَّةِ ، وَعَرِفَ مَصِيرُ الْإِنْسَانِ وَنَهَايَتِهِ ، وَهِيَ أُمُورٌ لَا مجَالٌ فِيهَا لِلْعُقْلِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَأْتِي إِلَّا مِنْ خَلَالِ الْوَحْيِ .

أَمَّا الصَّوْفِيَّةُ فَقَدْ أَضَافَ بَعْضُهُمْ مَصَادِرَ جَدِيدَةٍ لِلتَّلْقِيِّ ، وَعَمِلُوا بِهَا جَاءَ عِبْرَاهَا مِنْ أُورَادٍ وَأَذْكَارٍ وَصَلْوَاتٍ ، كَالْكَشْفُ وَالْذُوقُ وَالْوَجْدُ وَالْإِلَهَامُ وَالْفَرَاسَةِ .

وَسِيَّنَاوِلُ هَذَا الْبَحْثُ مَصَادِرَ هُؤُلَاءِ الصَّوْفِيَّةِ الْمُسَارِ إِلَيْهَا ، وَهِيَ : " الْكَشْفُ وَالْذُوقُ وَالْوَجْدُ وَالْإِلَهَامُ وَالْفَرَاسَةُ " مَعَ بَيْانِ مَوْقِفِ بَقِيَّةِ أَهْلِ السَّنَةِ مِنْهَا وَيَمْثُلُهُمْ ابْنُ الْقِيمِ .^(٣)

ابن تيمية. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني، مجموع الفتاوى، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، المجلد الحادي عشر - كتاب أصول الفقه: ج ١٩ ص ٥٧.

أولاً : الكشف الصوفي :

ماهية الكشف :

من أصول الدين الإسلامي أنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبَعْثُرُونَ ﴾ [النمل: ٦٥]. وأن الخلق منها كانت منزلة أحدهم لا يصل إلى معرفة الغيب إلا من شاء الله يطلعه على ما يشاء من ذلك. قال تعالى : ﴿ عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى عَيْنِهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٦].

يعد الصوفية الكشف معياراً معرفياً موثقاً به ، فالصوفية يؤمنون بأن وراء الحسن واستدللات العقل متوجه آخر للمعرفة وهو الكشف وهو ما تلاقيه القلوب من الغيب .
والكشفُ لغة : رفعك شيئاً عما يواريه ويعطيه ، كرفع العطاء عن الشيء .^(٤) قال أبو حنيفة : يعني أن البرق إذ لمع أضاء السحاب فتراه أبيض فكانه كشف عن ريط .
يقال : تكشف البرق إذا ملأ السماء . كشف الأمر يكشفه كشفاً : أظهره . وكشفه عن الأمر : أكرهه على إظهاره . وكشفه بالعداوة أي بادأه بها . وفي الحديث : ” لو

← -----

^(٣) هو محمد بن أبي بكر بن سعد بن حزير ، الزرعبي ، الدمشقي الحنبلي ، شمس الدين المعروف بابن قيم الجوزية ، وكان أبوه الشيخ أبو بكر بن أبيوبن سعد بن حريز الزرعبي كان قيئاً على المدرسة الجوزية بدمشق فسمى ابنه بابن قيم الجوزية .

^(٤) الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تيم الفراهيدي البصري ، كتاب العين ، تحقيق مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال ، ج ٥ ، ص ٢٩٧ . وابن منظور لسان العرب ، ج ٩ ، ص ٣٠٠ .

تكاشفتم ما تدافتم^(٥) . وقال الجرجاني : ”الكشف في اللغة : رفع الحجاب“^(٦)

أي لو انكشف عيب بعضكم لبعض . وقال ابن الأثير : أي لو علم بعضكم سريرة بعض لاستقلل تشيع جنازته ودفنه . والكافحة : مصدر كالعافية والخاتمة . وفي التنزيل العزيز قول الله عز وجل : ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم : ٥٨] ؛ أي كشف ، وقال ثعلب : معنى قوله ليس لها من دون الله كافحة : أي لا يكشف الساعة إلا رب العالمين.^(٧)

اصطلاحاً : الكشف هو ”الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعانى الغيبة ، والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً“^(٨) المكافحة يقال لها رفع الحجاب الذى بين الروح الجسماني ، الذى لا يمكن إدراكه بالحواس الظاهرى . وقد تطلق المكافحة على المشاهدة أيضاً . قالوا : إن السالك حينما يضع قدمه في عين الحقيقة بعد ما يجذبها من طبيعتها السفلية بسبب جذبه الإرادة فإنه يصفي باطنه بالرياضية ، فلذا تصبح عينه في كل وقت مفتوحة . وبمقدار ذلك ”الصفاء“ يرتفع عنه الحجاب ويزداد لديه قوة صفاء عقل المعانى المعقولة.^(٩)

^(٥) انظر : العجلوني ، إسماعيل بن محمد الجراحي (المتوفى : ١١٦٢ هـ) ، كشف الخفاء ومزيل الإلbas عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، مكتبة القدسى ، لصاحبها حسام الدين القدسى - القاهرة ، ١٣٥١ هـ ، ج ١ ، ص ٤١٨ . وهو من كلام الحسن البصري .

^(٦) الجرجاني ، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) ، كتاب التعريفات ، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ مـ : ص ١٨٤ .

^(٧) انظر ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق أحمد عامر أحمد حيدر ، ط ٢ ، ٢٠٠٩ مـ ، دار الكتب العلمية بيروت . ج ٩ ، ص ٣٠٠ .

^(٨) الجرجاني ، كتاب التعريفات : ص ١٨٤ .

^(٩) التهانوى ، محمد على ، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تقديم وإشراف ومراجعة رفيق العجم ، تحقيق على دحروج ، مكتبة لبنان ، ط ١٩٩٦ مـ ، ج ٢ ، ص ١٣٦٦ .

وتكلم السراج الطوسي والقشيري عن المشاهدة والمكاشفة وعراها على النحو التالي :

نقل الطوسي في تعريفه للمشاهدة عن عمرو المكي قال : المشاهدة ما لاقت القلوب من الغيب بغير ولا يجعلها عيانا ولا وجد. وهي وصل رؤية القلوب ورؤية العيان ، لأن رؤية القلوب عند كشف اليقين في زيادة توهם .

ونقل أيضاً : المكاشفة هي تعني المحاضرة ، يعني المdanaة .^(١٠)

أما القشيري فيقول بأنها مراتب تبدأ بالمحاضرة ثم المكاشفة ، ثم المشاهدة . فالمحاضرة حضور القلب وقد يكون بتواتر البرهان وهو بعد وراء الستر ”الحجاب“ ، وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان الذكر . ثم بعده المكاشفة وهو حضوره بنعت البيان غير مفتقر في هذه الحالة إلى تأمل الدليل وتطلب السبيل ولا مستجير ”مستعيد“ من داعي الريب ولا محجوب عن نعت الغيب . ثم المشاهدة : وهي حضور الحق من غير بقاء تهمة ”شبهة“ .^(١١)

وذكر الطوسي فيما نقله : أن المشاهدة : زوائد اليقين ، سطعت بکواشف الحضور غير خارجة من تغطية القلب ، وهي أيضاً حضور بمعنى قرب مقرون بعلم اليقين وحقائقها .^(١٢)

ونلاحظ من خلال التعريفات أن المعاني متقاربة أو متراوحة وهذا يعني أن رأي القشيري يتفق وما نقله الطوسي عن عمرو المكي في المعنى وزاد القشيري عنه بترتيب معانيها وأحوالها .

^(١٠) الطوسي ، أبو نصر عبد الله علي السراج الطوسي ، اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي ، تحقيق عماد زكي البارودي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة مصر بدون ط ، ت ، ص ٧٢ .

^(١١) انظر القشيري ، أبو القاسم عبد الكري姆 بن هوازن القشيري ، الرسالة القشيرية ، تحقيق عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ، محمود بن الشريف ، المكتبة الوقفية ، القاهرة ، مصر ، بدون [ت ، ط] ، ص ١٧٧ .

^(١٢) انظر الطوسي ، اللمع ، ص ٧٢ .

قال الطوسي : والمشاهدة حال رفيع وهي من لواح زيادات حقائق اليقين وتقضي حال اليقين.

واليقين هو المكاشفة ، والمكاشفة على ثلاثة أوجه :

(١) مكاشفة العيان بالأبصار يوم القيمة.

(٢) مكاشفة القلوب بحقائق الإيمان ب المباشرة اليقين بلا كيف ولا حد.

(٣) مكاشفة الآيات بإظهار القدرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالمعجزات ، ولغيرهم بالكرامات والإجابات.^(١٣)

ويصنف الطوسي أحوال أهل المشاهدة إلى ثلاثة :

(١) حال الأصغر : وهم المریدون وهؤلاء يشاهدون الأشياء بعين العبر ويشاهدونها بأعين الفكر.

(٢) حال الأوساط وهو الذي أشار إليه أبو سعيد الخراز بقوله : الخلق في قبضة الحق وفي ملکه ، فإذا وقعت المشاهدة فيها بين الله وبين العبد لا يبقى في سره ولا همه غير الله تعالى.

(٣) الحال الثالث من المشاهدة ما سار إليه عمرو المكي بقوله : " إن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة ثبيت ، فشاهدوه بكل شيء ، وشاهدوا كل الكائنات به فكانت مشاهدتهم لديه وهم به ، فكانوا غائبين حاضرين حاضرين غائبين على انفراد الحق في الغيبة والحضور فشاهدوه ظاهراً وباطناً وباطناً وظاهراً وأخراً وأولاً ، وأولاً وأخراً ، كما قال الله عز وجل : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] " .^(١٤)

فالكشف نور يحصل للسالكين في سيرهم إلى الله تعالى ؛ يكشف لهم حجاب الحس ، ويزيل دونهم أسباب المادة نتيجة لما يأخذون به أنفسهم من مجاهدة وخلوة وذكر ،

(١٣) الطوسي ، اللمع ، ص ٧٣ - ٧٤.

(١٤) الطوسي ، اللمع ، ص ٧٢.

قال حجة الإسلام الغزالى عن علم المكافحة : ” هو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفات المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها ، فيتوجه لها معانٍ مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذلك ، حتى تحصل المعرفة الحقيقة بذات الله سبحانه ، وبصفاته الباقيات التامات ، وبأفعاله وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة ، ووجه ترتيبه للأخرة على الدنيا ، والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ، ومعنى الوحي ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنباء ، وكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملائكة السموات والأرض .. ”^(١٥) ويقول : ” إن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر ، وإنه لا يمكن منه إلا الذين اتقوا ، فالتحقوا بباب الذكر ، والذكر بباب الكشف ، والكشف بباب الفوز الأكبر ، وهو الفوز بلقاء الله تعالى ”^(١٦) فتنعكس أبصارهم في بصائرهم ، فينظرون بنور الله وتنمحي أمامهم مقاييس الزمان والمكان ، فيطلعون على عوالم من أمر الله اطلاقاً لا يستطيعه من لا يزال في قيد الشهوات والشكوك والبدع العقائدية والوساوس الشيطانية ، ولا تتسع له إلا تلك القلوب النيرة السليمة التي زالت عنها طلبات الدنيا وغواшинها ، وانقضت عنها غيوم الشكوك ووساوسها ، وكثافة الماديات وأوضارها.

ويرجع هذا الكشف إلى أن العبد إذا انصرف عن الحس الظاهر إلى الحس الباطن تغلبت روحه على نفسه الحيوانية المتلبسة ببدنه - والروح لطيفة كشافة - فيحصل له حينئذ الكشف ، ويتلقي واردات الإلهام .

فإن من غض بصره عن المحaram ، وكفَّ نفسه عن الشهوات ، وعمرَ باطنه بمراقبة الله تعالى ، وتعودَ أكل الحلال لم يخطيء كشفه وفراسته ، ومن أطلق نظره إلى المحرمات تنفست نفسه الظلمانية في مرآة قلبه فطممت نورها.^(١٧)

^(١٤) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ١١ .

^(١٧) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى : ج ١٥ ، ص ٣٩٦ ، وص ٤٢٦ ، وج ٢١ ، ص ٢٥٧ .

يقول ابن خلدون رحمة الله : ” ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس ، والاطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها ؛ والروح من تلك العوالم. وسبب هذا الكشف أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ، ضعفت أحوال الحس ، وقويت أحوال الروح ، وغلب سلطانه ، وتتجدد نشاؤه. وأuan مع ذلك الذكر؛ فإنه كالغذاء لتنمية الروح ، ولا يزال في نمو وتزايد إلى أن يصير شهوداً ، بعد أن كان علماً ، ويكشف حجاب الحس ، ويتم صفاء النفس الذي لها من ذاتها ، وهو عين الإدراك ، فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الإلهي .. إلى أن قال : وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة ؛ فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم ”^(١٨).

ويرى بعض المتصوفة أن الكشف هو كشف الحجب عن أولياء الصوفية فيرون ويسمعون ويعلمون مالا يعلمه الناس من مغيبات سوء الماضية أو الحاضرة أو المستقبلية فالكشف لفظ عام يدخل تحته أمور : منها رؤية النبي يقطة ، وكذلك الأولياء بعد موتهم ، والرؤى في المنام ، والإلهام والفراسة والهواتف ، وخرق الحجب الحسية ، واطلاع على المغيبات بعين البصر أو البصيرة . مثل : - علم الغيب ، والنظر في اللوح المحفوظ ، والعلم بوقت الموت ، ومعرفتهم لخائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وأن يوحى إليهم ، وغير ذلك . وقد ذكر الغزالي أن الصوفية في يقطفهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتاً ويفتسبون فوائد ثم يرتقي الحال من مشاهدة الصور إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق .^(١٩)

وقال : ” أعلم أن ميل أهل التصوف للعلوم الإلهامية دون التعليمية! فلذلك لم يحرموا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفوون والبحث عن الأقاويل ، بل قالوا : الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلاقى كلها بالإقبال

^(١٨) ابن خلدون ، المقدمة ، دار القلم ، ط ٥ ، ١٩٨٤ م - ١٤١٩ هـ . ، ص ٣٢٩.

^(١٩) الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (المتوفى : ٥٠٥ هـ) : المنقذ من الضلال ، تحقيق عبد الحليم محمود ، دار الكتب الحديقة ، مصر : ص ١٧٨ .

بكنه الهمة على الله ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم ، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملائكة وانقشع عن القلب حجاب العزة بلطف الرحمة وتلألأ فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفيه المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة. فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد في الدنيا والتبري من علاقتها وتفریغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله... وهكذا يصبح متعرضاً لنفحات رحمة ربه فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله عليه من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذا الطريق..

“^(٢٠) وقد انتهى جمع من المتصوفة نحو الغزالي في تلقي الكشف والعلم والمعرفة. عرف الكشف بأنه : قوة جاذبية بخواصيتها نور عين البصيرة إلى فيض الغيب ، فهو

قوة تجذب صاحبها إلى عالم الغيب فيطلع على الغيب.^(٢١)

وقد انتقد ابن الجوزي كلام الغزالي في المكافحة فقال : وجاء أبو حامد الغزالي فصنف كتاب الإحياء على طريقة القوم وملاهٌ بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلاهنا وتكلم في علم المكافحة وخرج عن قانون الفقه... وقال إن الصوفية في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصورة إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق.

ثم قال : وكان السبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء قلة علمهم بالسنن والإسلام والآثار وإنقاذهما على ما استحسنوه من طريقة القوم وإنما استحسنوها لأنها قد

^(٢٠) انظر الغزالي ، الإحياء ، ج ٣ ، ص ٢١.

^(٢١) الشعراوي ، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ، ط دار إحياء التراث العربي بغداد ، ص ٣١٣.

ثبت في النقوس مدح الزهد... وجمهور هذه التصانيف التي صنفت لهم لا تستند إلى أصل وإنما هي واقعات تلقيها بعضهم عن بعض ودونوها وقد سموها بالعلم الباطن.^(٢٢)
وقال ابن تيمية : فإن أبو حامد هو في علم المعاملة والأمر والنهي كلامه من جنس
كلام أمثاله من أهل التصوف والفقه وأما ما سماه هو علم المكاشفة فكلامه فيه ألوان فتارة
يذكره بصوت أهل الفلسفة وتارة بصوت الجهمية وتارة بصوت هو من تصوّيت أهل
الحديث والمعرفة وتارة يطعن على هؤلاء وتارة يذكر ما هو غير ذلك.^(٢٣)
أما ابن القيم فيبرر لمقال هؤلاء بما ذهبوا إليه من قول حادوا به عن الطريق وجانبوا
الصواب وهو ما عرف به الصوفية الأوائل من استخدام الاستعارات التي قد يفهم بها غير
المعنى المقصود فيقول :

فاعلم أن في لسان القوم من الاستعارات وإطلاق العام وإرادة الخاص وإطلاق
اللفظ وإرادة إشارته دون حقيقة معناه ما ليس في لسان أحد من الطوائف غيرهم ، وهذا
يقولون : نحن أصحاب إشارة لا أصحاب عبارة ، والإشارة لنا والعبارة لغيرنا . وقد
يطلقون العبارة التي يطلقها الملحد ويريدون بها معنى لا فساد فيه . وصار هذا سبباً لفتنة
طائفتين : طائفة تعلقوا عليهم بظاهر عبارتهم فبدعواهم وضللوهم . وطائفة نظروا إلى
مقاصدهم ومغزاهم فصوبوا تلك العبارات وصححوا تلك الإشارات ، فطالب الحق
يقبله من كان ، ويرد ما خالفه على من كان.^(٢٤)

(٢٢) انظر ابن الجوزي ، تلبيس إيليس ، دار القلم ، لبنان ، ط ١ ، سنة ١٤٠٣ هـ ، ص ١٤٩.

(٢٣) ابن تيمية ، بغية المرتاد في الرد على المتكلمة والقرامطة والباطنية ، موسى الدويش ، مكتبة
العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، ط ٣ ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م ، ص ٢١٧.

(٢٤) ابن القيم ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حزير ، الزرعبي ، الدمشقي الحنبلي ، مدارج
السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، تحقيق عماد عاص ، دار الحديث - القاهرة ، ط ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، ج ٣ ، ص ٣٣٠.

ثم يحذر من الاشتباه في كلامهم وفهم معنى غير المعنى المقصود فإنه أصل البلاء فيقول : ”فإياك إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها ، فإنها أصل البلاء ، وهي مورد الصديق والزنديق ، فإذا سمع الضعيف المعرفة والعلم بالله تعالى لفظ ”اتصال وانفصال ومسامرة ومكالمة ، وأنه لا وجود في الحقيقة إلا وجود الله وأن وجود الكائنات خيال ووهم ، وهو بمنزلة وجود الظل القائم بغيره“ فسمع منه ما يملا الآذان من حلول واتحاد وشطحات . والعارفون من القوم أطلقوا هذه الألفاظ ونحوها ، أرادوا معاني صحيحة في نفسها فغلط الغالطون وفهم ما أرادوه ، ونسبوهم إلى إخادهم وكفرهم“^(٢٥).

وقال في إغاثة اللهفان : ” ومن كيده : ما ألقاه إلى جهال المتصوفة من الشطح والطامات ، وأبرزه لهم في قالب الكشف من الخيالات ، فأوقعهم في أنواع الأباطيل والترهات ، وفتح لهم أبواب الدعاوى المهايلات ، وأوحى إليهم : أن وراء العلم طريقاً إن سلكوه أفضى بهم إلى الكشف العيان ، وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن ، فحسن لهم رياضة النفوس وتهذيبها ، وتصفية الأخلاق والتجافى عما عليه أهل الدنيا ، وأهل الرياسة والفقهاء ، وأرباب العلوم والعمل على تفريغ القلب وخلوه من كل شيء ، حتى يت遁ش فيه الحق بلا واسطة تعلم ، فلما خلا من صورة العلم الذى جاء به الرسول نقش فيه الشيطان بحسب ما هو مستعد له من أنواع الباطل ، وخيله للنفس حتى جعله كالمشاهد كشفاً وعياناً ، فإذا أنكره عليهم ورثة الرسل قالوا : لكم العلم الظاهر ، ولنا الكشف الباطن ، ولكن ظاهر الشريعة ، وعندنا باطن الحقيقة ، ولكن القشور ولنا اللباب ، فلما تمكن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة والأثار كما ينسليخ الليل عن النهار ، ثم أحالهم في سلوكيهم على تلك الخيالات ، وأوهمهم أنها عن الآيات البينات ، وأنها من قبل الله سبحانه إلهامات وتعريفات فلا تعرض على السنة والقرآن ، ولا تعامل إلا بالقبول والإذعان“؟ فلغير الله لا له سبحانه ما يفتحه عليهم

(٢٥) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ١٥١.

الشيطان من الخيالات والشطحات ، وأنواع الهدىان. وكلما ازدادوا بعدها وإعراضًا عن القرآن وما جاء به الرسول كان هذا الفتح على قلوبهم أعظم.^(٢٦)
ولا ينكر ابن تيمية الكشف فقد تكلم عنه وعن إنكار بعضهم له وغلو الآخرين فيه ويرى خيار الأمة أوسطهم.

فالكشف والمشاهدات والمخاطبات عند ابن تيمية من جنس الخوارق فقال : ” وأما المعجزات التي لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم فمثل قول عمر في قصة سارية ، وأخبار أبي بكر بأن بيطن زوجته أثني ، وأخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً. قصة صاحب موسى في علمه بحال الغلام ، والقدرة مثل قصة الذي عنده علم من الكتاب. قصة أهل الكهف ، وقصة مريم ، وقصة خالد بن الوليد وسفينة مولى رسول الله ﷺ وأبي مسلم الخولاني ، وأشياء يطول شرحها ”.^(٢٧)

وتكلم ابن تيمية عن العلم بالكائنات وكشفها وقال العلم بالكائنات وكشفها له طرق متعددة حسية وعقلية وسمعية ضرورية ونظرية وغير ذلك وينقسم إلى قطعي وظني وغير ذلك.

أما العلم بالدين وكشفه فالدين نوعان :

الأول : أمور اعتقادية : كالعلم بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، ويدخل في ذلك أخبار الأنبياء وأئمهم ومراتبهم في الفضائل ، وأحوال الملائكة وصفاتهم وأعمالهم ، ويدخل في ذلك صفة الجنة والنار ، وما في الأعمال من الثواب والعقاب ، وأحوال الأولياء والصحابة وفضائلهم ومراتبهم وغير ذلك.

(٢٦) ابن القيم ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) ، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان تحقيق محمد حامد الفقي ، مكتبة المعارف ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، ج ١ ، ص ١١٩.

(٢٧) ابن تيمية ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، مجموعة الرسائل والمسائل - تعليق رشيد رضا ، لجنة التراث العربي ، (د.ط) (د.ت) ج ٥ ، ص ٦.

وقد يسمى هذا النوع أصول دين ، ويسمى العقد الأكبر ، ويسمى الجدال فيه بالعقل كلاماً. ويسمى عقائد واعتقادات ، ويسمى المسائل العلمية والمسائل الخبرية ، ويسمى علم المكافحة.

والثاني : الأمور العملية الطلبية : من أعمال الجوارح والقلب كالواجبات والمحرمات والمستحبات والمكرهات والمباحات ، فإن الأمر والنهي قد يكون بالعلم والاعتقاد ، فهو من جهة كونه علمًا واعتقادًا أو خبراً صادقاً أو كاذباً يدخل في القسم الأول ، ومن جهة كونه مأموراً به أو منهيًّا عنه يدخل في القسم الثاني ، مثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذه الشهادة من جهة كونها صادقة مطابقة لخبرها فهي من القسم الأول ، ومن جهة أنها فرض واجب وأن صاحبها بها يصير مؤمناً يستحق الثواب ، وبعدمها يصير كافراً يحمل دمه وماليه ، فهي من القسم الثاني.

وقد يتفق المسلمون على بعض الطرق الموصلة إلى القسمين كاتفاقهم على أن القرآن دليل فيها في الجملة ، وقد يتنازعون في بعض الطرق كتنازعهم في أن الأحكام العملية من الحسن والقبح والوجوب والحرض هل تعلم بالعقل كما تعلم بالسمع أم لا تعلم إلا بالسمع؟^(٢٨).

ويرى أن مسلك العلم طريقان فمن سلك طريق العقليات والذوق والحال وترك العلم فقد ضل ضلالاً بعيداً. فلا بد من التقييد بما جاء في الكتاب والسنة.

فقال : ” لم يبق معهم إلا طريقان : إما طريق النظار : وهي الأدلة القياسية العقلية ، وإما طريق الصوفية : وهي الطريقة العبادية الكشفية ، وكل من جرب هاتين الطريقتين علم أن مالا يوافق الكتاب والسنة منها فيه من التناقض والفساد ما لا يخصيه إلا رب العباد ، ولهذا كان من سلك إحداهما إنما يقول به الأمر إلى الحيرة

(٢٨) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل والمسائل : ج ٥ ، ص ١٧-١٨ .

والشك ، إن كان له نوع عقل وتمييز ، وإن كان جاهلاً دخل في الشطح والطامات التي لا يصدق بها إلا أجهل الخلق ”^(٢٩).

ويرى أنه ليس بالضرورة حصول الخوارق والمكاففات لل المسلم ، فإن ذلك لا يضر في دينه قال : فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات ، ولم يسخر له شيء من الكونيات ، لا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله .^(٣٠)

وأما ابن القيم فيقول : ”فالقوم يشيرون إلى الكشف ، ومشاهدة الحقيقة. وهذا لا يمكن طلبه بالدليل أصلاً. ولا يقال : ما الدليل على حصول هذا؟ وإنما يحصل بالسلوك في منازل السير ، وقطعها منزلة منزلة ، حتى يصل إلى المطلوب. فوصوله إليه بالسير لا بالاستدلال ، بخلاف وصول المستدل. فإنه إنما يصل إلى العلم ، ومطلوب القوم وراءه. والعلم منزلة من منازلهم وهذا يسمون أصحاب الاستدلال : أصحاب القال. وأصحاب الكشف : أصحاب الحال. والقوم عاملون على الكشف الذي يحصل نور العيان ، لا على العلم الذي ينال بالاستدلال والبرهان. وهذا موضع غلط واشتباه. فإن الدليل في هذا المقام شرط ، وكذلك العلم. وهو باب لا بد من دخوله إلى المطلوب ، ولا يوصل إلى المطلوب إلا من بابه ، كما قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ وَلَيْسَ الْبُرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبُرُّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَاهِهَا وَاتَّقُوا اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة : ١٨٩]^(٣١)“.

ويميز ابن القيم في الكشف بين الكشف الصحيح ”ال حقيقي ” والكشف السقيم ”الجزئي ” فيقول : ”الكشف الصحيح أن يعرف الحق الذي بعث الله به

^(٢٩) ابن تيمية ، درء تعارض العقل ، تحقيق : الدكتور محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، ط ٢ ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م ، ج ٥ ، ص ٣٤٥ .

^(٣٠) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - رشيد رضا ، ج ٥ ، ص ٩ .

^(٣١) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ .

رسله ، وأنزل به كتبه ، معاينة لقلبه ، ويجرد إرادة القلب له ، فيدور معه وجوداً وعدماً ، هذا هو التحقيق الصحيح ، وما حاله فغرور قبيح“^(٣٢).

والمراد بالكشف : كشف الحقيقة ، لا الكشف الجزئي السفلي . وهو ثلاثة درجات :

(١) كشف عن الطريق الموصى إلى المطلوب . وهو الكشف عن حقائق الإيمان . وشرائع الإسلام .

(٢) وكشف عن المطلوب المقصود بالسير : وهو معرفة الأسماء والصفات .

(٣) ونوعاً التوحيد وتفاصيله . ومراعاة ذلك حق رعايته . وليس وراء ذلك إلا الدعاوى والشطح والغرور .^(٣٣)

ثم يقسم الكشف الجزئي إلى نوعين : كشف شيطاني ، وكشف رحامي ، فيقول :

”أما الكشف الجزئي عما أكل فلان وعما أحده في داره وعما يجري له في غده ونحو ذلك فهذا مالا يعبأ به من علت همته ولا يلتفت إليه ولا يعده شيئاً على أنه مشترك بين المؤمن والكافر فلعباد الأصنام والمجوس والصابئة وال فلاسفة والنصارى من ذلك شيء كثير وذلك لا ينفعهم عند الله ولا يخلصهم من عذابه وهؤلاء الكهان وعبيد الجن والسحرة لهم من ذلك أمور معروفة وهم أكفر الخلق فغاية هذا المنجم اليهودي الذي أخبر ابن عباس بما أخبره أن يكون واحداً من هؤلاء فكان ماذا وهل يقف عند هذا إلا الهمم الدنيئة السفلية التي لا نهضة لها إلى الله والدار الآخرة لما يرى لها بذلك من التمييز عن الهمج الرعاع من بني آدم“^(٣٤).

”أما الكشف الرحامي فهو أن يغلب نور الكشف على القلب ، فتنزلت هذه المكاشفة من القلب ، وحلت منه محل العلم الضروري الذي لا يمكن جحده ولا تكذيبه ، بل صارت للقلب بمنزلة المرئي للبصر ، والسموع للأذان والوجوديات

(٣٢) ابن القيم ، مدارج السالكين : ج ٣ ، ص ٢١٤ .

(٣٣) المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

(٣٤) ابن القيم ، مفتاح دار السعادة و منتشر ولالة العلم والإرادة ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ج ٢ ، ص ٢١٨ .

للنفس... ، والكشف الرحمني من هذا النوع ، هو مثل كشف أبي بكر لما قال لعائشة رضي الله عنها أن امرأته حامل بأثني ، وكشف عمر لما قال : يا سارية الجبل ، وأضعاف هذا من كشف أولياء الرحمن“.

والمقصود أن مراد القوم بالكشف في هذا الباب أمر وراء ذلك ، وأفضله وأجله أن يكشف للسالك عن طريق سلوكه ليستقيم عليها ، وعن عيوب نفسه ليصلحها ، وعن ذنبه ليتوب منها ، فما أكرم الله الصادقين بكرامة أعظم من هذا الكشف ، وجعلهم منقادين له ، عاملين بمقتضاه ، فإذا انضم هذا الكشف إلى كشف تلك الحجب المتقدمة عن قلوبهم سارت القلوب إلى ربها سير الغيث إذا استدبرته الريح.^(٣٥)

ويرى انه يمكن للمسلم قصد الكشف لا كغاية يتغنى الوصول إليها ، وإنما ليكون إمامه عند حصوله عليه ومصححا لمساره . وهنا يخالف شيخه ابن تيمية الذي ينكر القصد في الكشف .

فيقول : ” وأما تسلیم القصد إلى الكشف فليس معناه : أن يترك القصد عن معاينة الكشف . فإنه متى ترك القصد خلع رقبة العبودية من عنقه . ولكن يجعل قصده سائرا طالبا لكتفه يؤمه . فإذا وصل إليه سلمه إليه . وصار الحكم للكشف ؛ إذ القصد آلة ووسيلة إليه . فإن كان كشفا صحيحا مطابقا للحق في نفسه : كشف له عن آفات القصد ، وفسداته ، ومصححاته وعيوبه . فأقبل على تصحيحه بنور الكشف . لا أن صاحب القصد ترك القصد لأجل الكشف فهذا سير أهل الإلحاد ، الناكبين عن سبيل الحق والرشاد “^(٣٦) .

وعلى هذا يمكن تعريف الكشف بأنه حال تعرى القلب حال خلوه من حظوظ النفس ومشتفيات الطبع الإنساني من أحوال تقوى بصيرة القلب بحيث يفتح الله عليه

^(٣٥) انظر ابن القيم ، مدارج السالكين ، ج ٣ ، ص ٢١٥-٢١٦ .

^(٣٦) ابن القيم ، مدارج السالكين : ج ٢ ، ص ١٥٠ .

فيصر من الأمور والأحوال الغائبة عن الحس والعقل ما لا يصره غيره ولا يعرفه من العلوم والأحوال.

ومن الأمر المعلوم بضرورة العقل والشرع أن ما يحصل في القلب من أمور لغير النبي والرسول الموحى إليه لا تخلو من حالين :

الحال الأول : أن يدل الدليل الشرعي على صحة الأمور التي تعلم عن طريق الفراسة الإيمانية كما قال ﷺ : ”اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله“^(٣٧) أو عن طريق الكرامة الربانية كاطلاع عمر رضي الله عنه على حال سارية في المعركة مع الروم وتعلم أبي بكر ما في بطن امرأته لكن هذه الأشياء لا تستمر بل يحدث خلافها إذا ما خالطت الغفلة قلب العبد كما قال سبحانه : ﴿كَلَا بْلَرَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين : ١٤].

الحالة الثانية : أن لا يدل الدليل الشرعي على صحتها وفي هذه الحالة يجب عرضها على الشرع لأن الخواطر التي تحصل للإنسان قد تكون وساوس شيطانية كما قال سبحانه : ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسَوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ (٤) الْذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس : ٦-٤] عندما أمرنا أن نتغىظ به من وسوسه الشيطان. وقد ذكر ابن تيمية عدة وجوه تدل على بطلان هذا النوع من الكشف وعدم إمكان الاعتماد عليه في تحصيل المطالب الشرعية وهي^(٣٨) :

أولاً : أن الرسل لم تأت به وإنما جاءت بالرد للكتاب والسنّة وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ أَمْرٌ مِّنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي

^(٣٧) انظر : النسائي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني ، النسائي ، السنن الكبرى ، حرقه وخرج أحاديثه : حسن عبد المنعم شلبي ، أشرف عليه : شعيب الأرناؤوط ، قدم له : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط ١ ، ٣١٢٧ ج ٥ ، ص ٢٩٨ .

^(٣٨) مجلة البحث الإسلامي - مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، المملكة العربية السعودية ، ١٣٩٥ هـ : الجزء ١ ، ص ١٧٤ .

شَيْءٌ فَرُدُوْهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَخْسَنُ ثَأْوِيْلًا ﴿٥٩﴾ [النساء : ٥٩].

- ثانياً: أن مجرد ترك الشهوات لا يكفي في تحصيل الحال الإيماني بل لا بد أن تنضم إليه أنواع من العبادات الظاهرة والباطنة حتى تكتمل بصيرته.
- ثالثاً: اتفاق شيخ الصوفية وأئمته على وجوب تعلم العلم الشرعي وأن طريقتهم لا تستقيم إلا باتباع الكتاب.
- رابعاً: أن الاعتماد في تحصيل المطالب الإلهية عليه غير مأمون لما تقدم من إمكان أن يكون الحاصل في القلب من وساوس الشيطان.
- خامساً: أن الكشف لا يمكن أن يكون طريقة للمطالب الإلهية لأن إيصاله للمطلوب غير متيقن والدليل لا بد أن يستلزم المدلول وهو لا يستلزم المطلوب فقد يوصل إليه وقد يوصل إلى ضده.
- سادساً: عدم معرفة إيصاله إلى الحق إلا إذا وصل إليه فهو ليس بمحامون ولا متعين للوصول إلى الحق.
- سابعاً: أن الكشف لا يوصل إلا إلى معرفة إجمالية أما التفصيلية فهذا ما لا يمكنه أن يوصل إليه وإذا ظهر لنا عدم إمكان الاعتماد على الكشف كطريق للمعرفة الصحيحة المدلول عليها بالكتاب والسنة وأن خطأ الكشف يعرف بمخالفة الكتاب والسنة أو مخالفة العقل الصحيح المهتم بها أو مخالفته للحسن الظاهر والباطن.
- علمًا بأن أكثر ما يدعوه هؤلاء الصوفية من المكاففات ما هي إلا أحوال شيطانية أو تخيلات وهمية تحصل لبعض الناس إذا غاب عن وعيه وحسه بسبب قوة الواردات وضعف النفس مما يفقد صوابه فيرى ويشاهد بخياله ما لو كان في حال اعتداله وحسه لم يره ولم يشاهده الأمر الذي أدى ببعضهم إلى الحلول والاتحاد لاعتقاده أن ما شاهده هو ربه أو من حدثه هو كذلك.

الذوق والوجود :

الذوق لغة :

الذوق : مصدر ذاق الشيء يذوقه ذوقاً ومذاقاً ، و تقول ذواقه ومذاقه طيب؛ والمذاق : طعم الشيء ، وتقول : ذقت فلاناً وذقت ما عنده أي خبرته ، وكذلك ما نزل بالإنسان من مكرره فقد ذاقه.^(٣٩) ، وقال الجرجاني : ”الذوق : هو قوة منبطة من العصب المفروش على جرم اللسان تدرك بها الطعوم بمخالطة الرطوبة اللعابية في الفم بالمطعم ووصولها إلى العصب“.^(٤٠)

اصطلاحاً : عرّفه الجرجاني بقوله : ”عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره“.^(٤١).

وذكر ابن القيم أن الذوق مباشرة الحاسة الظاهرة والباطنة للملائكة والمنافر ولا يختص بحاسة الفم في لغة القرآن بل ولا في لغة العرب ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ تَرَى إِذْ يَنْتَوِقُ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوْقُوا عَذَابَ الْخَرِيقِ ﴾ [الأنفال : ٥٠] ، قوله : ﴿ يَوْمَ تَبَيَّنُ صُورُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَتَسْوَدُ وُجُوهُ فَآلَّمَا الَّذِينَ اسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرُتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٦] ، وقوله تعالى : ﴿ هُذَا فَلَدُودُقُوْهُ حَبِّيْمٌ وَعَسَاقٌ ﴾ [ص : ٥٧] ، وقوله : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُنُوْنَ وَالْخُوفَ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢]. فتأمل كيف جمع بين الذوق واللباس ليدل على مباشرة الذوق وإحاطته وشموله فأفاد الأخبار عن إذاقته أنه واقع مباشر غير متضرر فإن الخوف قد يتوقع ولا يباشر وأفاد الإخبار عن لباسه أنه محيط شامل كاللباس للبدن.^(٤٢)

(٣٩) انظر ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٠ . ص ١١١.

(٤٠) الجرجاني ، كتاب التعريفات : ص ١٠٧.

(٤١) المصدر السابق نفسه.

وقد جاء الذوق في السنة النبوية مقصودا به ما يحصل في القلب من لذة إيمانية وحلاوة يقينية في الصحيح عنه ﷺ أنه قال : ”ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا“.^(٤٢)

قال ابن القيم : ”فأخبر أن للإيمان طعما وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم الطعام والشراب“ . وقد عبر عنه النبي ﷺ بالطعام والشراب كما في حديث : ”إن أظل يطعمني ربي ويستقيني“.^(٤٣) قال ابن القيم : ”وقد غلظ حجاب من ظن أن هذه الطعام والشراب حس من الفم ، وذكره بلفظ الحلاوة فقال ﷺ : ”ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان“.^(٤٤)

وقال ابن القيم : ” وهذا الذوق هو الذي استدل به هرقل على صحة النبوة حيث قال لأبي سفيان : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه فقال : لا قال كذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلب فاستدل بما يحصل لأنباعه من ذوق الإيمان الذي خالطته بشاشة القلب لم يسخنه ذلك القلب أبدا على أنه دعوة نبوة ورسالة ملك ورياسة وبذا يثبت أن للقلب ذوقا يجده كذوق الفم للطعام والشراب وهذا اللفظ والمعنى ثابت بدلالة الكتاب والسنة“.^(٤٥)

←

^(٤٢) مدارج السالكين ، ج ٣ ، ص ٨٦-٨٧.

^(٤٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا ، حديث رقم ٣٤ ، ج ١ ، ص ٦٢.

^(٤٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الصيام ، باب النهي عن الوصال في الصوم ، حديث رقم ١١٠٤ ، ج ٢ ، ص ٧٧٦.

^(٤٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ، حديث رقم ١٦ ، ج ١ ، ص ١٢.

^(٤٦) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ج ٣ ، ص ٨٧.

الفرق بين الذوق والوجود :

قال ابن القيم : والذوق : أبقى من الوجود ، وأجل من البرق .
يريد أن منزلة الذوق أثبت وأرسخ من منزلة الوجود وذلك لأن أثر الذوق يبقى في
القلب ، ويطول بقاوه . فإن الذوق مباشرة والوجود عند الشيخ هيئ يتاجج من شهود
عارض مقلق فهو عنده من العوارض ، كالمهيان والقلق . فإنه ينشأ من مكاشفة لا تدوم .
فلذلك جعله أبقى من الوجود .^(٤٧)

ويرى ابن القيم أن الوجود أعلى من الذوق منزلة حيث أورد حديث " ثلاث من
كن فيه وجد بمن حلاوة الإيمان..." الحديث ، ثم قال في الذوق : ذاق طعم الإيمان ،
فوجد حلاوة الشيء المذوق : أخص من مجرد ذوقه . ولما كانت الحلاوة أخص من الطعم :
قرن بها الوجود الذي هو أخص من مجرد الذوق . فقرن الأخص بالأخص ، والأعم
بالأعم . ووجد الشيء يجده وجدانا : إذا حصل له وثبت .^(٤٨) ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ
يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدُ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] ،
وقوله : ﴿ أَمْ يَجِدُكَ يَتَبَيَّنًا فَأَوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾
[الضحى : ٨-٦]

الإلهام :

وهو مقام المحدثين ، وهو ما ورد بلفظه في الكتاب والسنة قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ
وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَهْمَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : ٨-٧] ، وقال النبي ﷺ لحسين
بن منذر الخزاعي لما أسلم : " قل : اللهم أهمني رشدي ، وقني شر نفسي ".^(٤٩)

^(٤٧) ابن القيم ، مدارج السالكين ، بتحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي : ج ٣ ، ص ٨٩ .

^(٤٨) ابن القيم ، مدارج السالكين : ، ج ٣ ، ص ٨٩ .

^(٤٩) أخرجه النسائي : انظر أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني ، (المتوفى : ٣٠٣هـ)
الستن الصغرى ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ، ط ٢ ،
١٤٠٦هـ باب ما يؤمر به المشرك أن يقول ، حديث رقم ١٠٧٦٤ ، ج ٩ ، ص ٣٦٤ .

هذا ولم يرتضى ابن القيم تسمية الإلهام بالتحديث وذلك لأن التحديث أخص من الإلهام وذلك لأمرتين :

أحدهما : أن الإلهام يكون لعموم المؤمنين ولا يختص به أحد دون أحد كما في الآية المقدمة.

الثاني : أن التحديث لا يكون لعموم المؤمنين بدليل محدث الرسول ﷺ عمر به دون الأمة حيث قال ﷺ : إن يكن في هذه الأمة أحد فعم وعرف ابن القيم الإلهام بأنه وحي لغير الأنبياء ولكن للمكلفين كما في قوله سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خُفْتُ عَلَيْهِ فَأَلْقِيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَغْرِبِي إِنَّ رَادُّهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] ويكون لغير المكلفين كما في قوله سبحانه : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنَّ الْخَزِيْنَ مِنَ الْجِبَالِ يُبُوتُوا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : ٦٨] فهذا كله وحي وإلهام .^(٥٠)

والإلهام عند ابن القيم على ثلات درجات :^(٥١)

الدرجة الأولى : نبأ يقع وحيا قاطعاً بسماع والنبا أخص من الخبر لأن النبأ هو الخبر الذي له شأن وهو نبأ لأنه خبر عن غيب معظم .

وقد عرف ابن القيم هذا النوع بأنه ” الإعلام الذي قطع من وصل إليه بموجبه إما بواسطة سمع أو هو الإعلام بلا واسطة وقد انتقد ابن القيم جعل طريق الإلهام السمع وذلك لأنه والحالة هذه خطاب وليس إلهاماً وهذا يستحيل أن يحصل إلا للأنبياء وهذا من خصوصيات موسى عليه السلام حيث خاطبه رب في الطور ” .

وأما ما يقع لأرباب الرياضيات من السباع فأعلاها ما يكون منه أن يخاطبه الملك خطاباً جزئياً فإن هذا يمكن أن يقع لغير الأنبياء وذلك خطاب الملائكة عمران ابن حصين بالسلام عليه فلما اكتوى ترك خطابه فلما ترك الكي عادت بالسلام وهو على نوعين :

^(٥٠) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ج ١ ، ص ٦٨ .

^(٥١) انظر مدارج السالكين لابن القيم ، ج ١ ، ص ٦٩ - ٧٣ .

أحدهما : أن يخاطبه بحيث يسمعه بأذنه.

الثاني : أن يلقيه على قلبه عندما يلم به.

وعلى هذا فإن المخاطب لا يعلم هل خطابه في هذه الحال خطاب ملك أو خطاب شيطان يطلق ابن القيم على هذين الخطابين الخطاب الرحمني والخطاب الشيطاني.

وعلى ذلك فلا يمكن التمييز بينهما إلا بعرضهما على الشرع فما وافقه علم أنه رحمني وما خالفه علم أنه شيطاني.

ومن سباع أرباب الرياضات خطاب حالي ويكون من النفس فتوهمه أنه من خارجها وهذا كثيراً ما يعرض لكثير من السالكين فيظن أن الله قد خاطبه وسيبه أن النفس حين صفائها وتخلصها من كدراتها حال الرياضة يقوى سلطان الروح والقلب على سلطان البدن والجسد وعندئذ يكون الخطاب للقلب والروح والصالك في حال غيبته وفاته قد يتصور من يخاطبه وهو ليس كذلك.

الدرجة الثانية : إلهام يقع عياناً هو عام ضروري لا يستطيع القلب دفعه وشرطه :
أولاً : ألا يتجاوز حدود الله فيرتكب المعاصي كالكھان وأصحاب الكشف
الشيطاني.

ثانياً : أن لا يقع على خلاف الحدود الشرعية كالتتجسس على العورات التي نهى الله عن التجسس عليها.

ثالثاً : أن لا يخطئ أبداً بل يستمر صدقه لأن الكشف الشيطاني لا يستمر صدقه بل يكذب وتمثله الأمور الفطرية والمعلومات الضرورية التي لا تحتمل الخطأ.

الدرجة الثالثة : إلهام يجلو عين التحقيق صرفاً : وهو الفناء في شهود الحقيقة الكونية.
وهذا النوع من الإلهام هو أصل أهل الحلول والاتحاد مع أن صاحب المنازل يخالفه
هؤلاء في أن الفناء في الشهود لا في الوجود وأهل الحلول والاتحاد هو عندهم فناء
في الوجود وأيا كان الأمر فإنه لا بد من الرجوع إلى الشع في كل نوع من هذه
الأنواع فإن دل الدليل عليه قبل وإن رده لم يقبل وقد تقدم أن التحديد أخص من
هذا الإلهام ومع ذلك فإن عمر رضي الله عنه كان لا يعتمد على تحديده ولكن على ما جاء عن
الرسول صلوات الله عليه وسلم.

الفراسة :

الفراسة لغة : بالكسر : اسم من التَّفَرِسِ ، وبالفتح : الْحَذْقُ بِرُكُوبِ الْخَيْلِ وَأَمْرِهَا^(٥٢) ، ويقال : أنا أَفْرَسْ مِنْكَ ، أي أَبْصَرُ وَأَعْرَفُ . وَقَالَ الرَّجَاجُ : أَفْرَسَ النَّاسَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، أي أَجْوَدُهُمْ وَأَصْدِقُهُمْ فِرَاسَةً ، والفراسة في اللغة بالكسر مصدر فرست بالعين أَفْرَسَ ، ومنه تفرست فيه الخبر تعرفته بالظن الصائب.^(٥٣)

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على معناها كقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر : ٧٥] قال مجاهد رحمه الله المفسرين وقال ابن عباس رضي الله عنها : ”للنااظرين“ وقال قتادة رحمه الله للمعتبرين وقال مقاتل : للتفكيرين ولم يرد لفظها فيه.^(٥٤) وأما في السنة فقد وردت بلفظها حيث قال رسول الله ﷺ : ”اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله“^(٥٥) ، وهو حسن ولا تعارض بين أقوال المفسرين في الآية المتقدمة لأن الناظر متى نظر وتفكر في حالهم وانتقل إلى الصور المشابهة لهم في الحال وصل إلى الحكم عليهم بنفس الحكم فهي أقوال متلازمة غير متنافرة.

^(٥٢) انظر الفيروز أبادي ، أبادي ، محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، دار الفكر ، بيروت ، ط٢٠٠٥ ، ص ٥٦٣ .

^(٥٣) الزبيدي ، محمد بن عبد الرزاق الحسيني ، أبو الفيض ، الملقب بمرتضى ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، دار الهداية ، ج ١٦ ، ص ٣٣١ .

^(٥٤) ابن القيم ، مدارج السالكين ، ج ٢ ، ص ٤٥٢ .

^(٥٥) الترمذى ، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الصحاك ، أبو عيسى (المتوفى : ٢٧٩ هـ) ، سنن الترمذى ، تحقيق وتعليق أحمد محمد شاكر ، محمد فؤاد عبد الباقي ، وإبراهيم عطوة عوض ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي - مصر ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م : حديث رقم ٣١٢٧ ، ج ٥ ، ص ٢٩٨ .

ويرى ابن القيم أن الفراسة على ثلاثة أنواع^(٥٦):

النوع الأول : الفراسة الإيمانية وحقيقة أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده يثبت على القلب ، وسمي بهذا الاسم تشبها له بوثوب الأسد على فريسته وسبب هذا النوع : نور يقذفه الله في قلب العبد يكون من نتائجه أن يفرق بين الحق والباطل والصادق والكاذب وغيرها وهي بحسب الإيمان قوة وضعفا فكلما قوي الإيمان قويت وكلما ضعف ضعفت فمن كان أقوى إيمانا كان أقوى فراسة.

قال أبو سعيد الخراز : من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق ، وتكون مواد علمه مع الحق بلا سهو ولا غفلة. بل حكم حق جرى على لسان عبده.

كان الصديق رضي الله عنه أعظم الأمة فراسة. وبعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وواقع فراسته مشهورة. فإنه ما قال لشيء أظنه كذا إلا كان كما قال. ويكتفي في فراسته موافقته ربه في الموضع المعروفة.

النوع الثاني : الفراسة الرياضية وهي تكون بالمران والتكرار وتحمل المشاق من الجوع والسهر والتخلص وسببها أن النفس إذا تجردت مما يقللها صار لها كشف بحسب ذلك التجرد وهذا النوع لا يختص بأهل الإيمان بل هو حاصل للمؤمن والكافر فهي مشتركة بين الناس ولا تدل على إيمان ولا على ولاء ، وكثير من الجهال يغتر بها. وللرهبان فيها وقائع معلومة. وهي فراسة لا تكشف عن حق نافع. ولا عن طريق مستقيم. بل كشفها جزئي من جنس فراسة الولاة ، ولا يستفاد منها الكشف عن الحق ولا عن طريق مستقيم فهي تحصل للولاة والأطباء وأرباب الحرف وقوتها تبعاً لسببها بحسب معرفتهم بوظائفهم وتمكنهم منها.

النوع الثالث : الفراسة الخلقية وهي الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن لما بينهما من ارتباط اقتضته حكمة الله كأن يستدل ببرقة العينين على الدهاء والخبث وبسعة الصدر على سعة الخلق والحلم ونحو ذلك وهي أيضاً كسابقتها لا يستدل بها على

^(٥٦) مدارج السالكين ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ - ٤٥٦ . باختصار

إيمان ولا كفر ولا ولایة ولا عداوة. ومعظم تعلق الفراسة بالعين. فإنه مرآة القلب وعنوان ما فيه. ثم باللسان. فإنه رسوله وترجمانه.

ويرى صاحب المنازل أن الفراسة : استئناس الغيب ويقصد بها قياس الشاهد على الغائب وهو أمر مشترك بين المؤمن والكافر وغيرهما ومثاها الاستدلال على نزول المطر بشدة البرق والرعد واستدلال الطبيب على المرض بظواهر على المريض ونحو ذلك وهي عنده على ثلاثة درجات :

الدرجة الأولى : فراسة طارئة نادرة وهي التي تقع على لسان شخص مرة واحدة في العمر مثلاً وهي عنده فراسة الغافلين الذين ليست لهم يقطة أرباب القلوب ولم يأنسوا بذكر الله وقربه فهي كرمية من غير رام.

الدرجة الثانية : فراسة تجيئ من غرس إيماني وهي تبع لصدق الحال فكلما كان الحال أصدق كانت هذه الفراسة أقوى وهي عنده تختص بأهل الإيمان وهم فيها متفاوتون ، فنور الكشف يولد الفراسة بل هو أصلها وقوتها الفراسة : بحسب قوة هذا النور وضعفه ، وقوته وضعفه بحسب قوة مادته وضعفها.^(٥٧)

الدرجة الثالثة : فراسة سرية وهي التي يخبر فيها المختار المصطفى صاحب الولاية عن الأمور المغيبة تارة تصرحها وتارة تلوّحها إما ستراً حاله أو صيانة لما أخبر به من الابتذال ووصوله إلى غير أهله وإما لغير ذلك من الأسباب وهي أعلى الأنواع عند صاحب منازل السائرين مع أن هذه الدعوى غير مقبولة لأن الخبر عن الغيب قد يكون ساحراً أو كاهناً أو عرافاً أو منجماً وكل هؤلاء أحواهم من الشرع مذمومة. قال ﷺ : من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ.^(٥٨)

^(٥٧) انظر : ابن القيم ، مدارج السالكين ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ - ٤٦٣ .

^(٥٨) انظر المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦٣ .

وقد تكلم ابن القيم عن فراسة شيخه ابن تيمية وذكر له عدة وقائع فقال : ”ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله أمورا عجيبة..أخبر أصحابه بدخول التتار الشام [سنة ٦٩٩] وأن جيوش المسلمين تكسر وأن دمشق لا يكون بها قتل عام ولا سي عام وأن كلب الجيش وحدته في الأموال : وهذا قبل أن يهم التتار بالحركة“.

ثم أخبر الناس والأمراء [سنة ٧٠٢] لما تحرك التتار وقصدوا الشام : أن الدائرة والهزيمة عليهم وأن الظفر والنصر للMuslimين. وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يمينا. فيقال له : قل إن شاء الله. فيقول ”إن شاء الله تحقيقا لاعليقا“ وسمعته يقول ذلك قال : فلما أكثروا علىي. قلت : لا تكثروا. كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ : أنهم مهزومون في هذه الكورة. وأن النصر لجيوش الإسلام. قال : وأطعمت بعض الأمراء حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو. (٥٩)

ومن خلال ما تقدم نستشف أن هناك فرقا بين الكشف والإلهام والفراسة :

فالكشف : نور يجعل للسائلين في سيرهم يرجع إلى انصراف العبد عن الحسن الظاهر إلى الحسن الباطن أي حضور القلب وإعماره بمراقبة الله وسببه العلم والمجاهدة والرياضة فهو من جنس الخوارق كما قال ابن تيمية ، ويكون منه الحقيقى الصحيح والرحمني ومنه غير الصحيح الشيطانى.

والإلهام : التحدث والتحديث أخص فهو لا يكون لجميع المؤمنين بينما الإلهام يكون لعموم المؤمنين.

أما الفراسة : فتعرف بالظن وهي خاطر يرد على القلب وتعلق بالعين والاستدلال فالنظر مرآته واللسان ترجمانه ولذلك تقع للبر والفاجر.

وقط أخطأ كثير من أهل التصوف حين جعلوها معنى واحدا أو أنها مترادة المعانى وإن كانت جميعها من قبيل الكشف إلا أن بينها عموما وخصوصا . وهي جميعها واردات

(٥٩) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

ظنية ترد على القلب وقد تقع للبر والفاجر ، وقد تصدق وقد لا تصدق ، لذلك ينبغي عدم الاغترار بها أو الحكم بها على الولاية والصلاح ، فهي إن صدقت للفاجر ف تكون من قبيل الاستدراج ، وإن صدقت للبر ف تكون من قبيل الكرامة . وفي كل لا ينبغي الالتفات إليها فلم يكن الصحابة يأبهون بها ويلتغتون إليها ولا السلف الصالح من بعدهم.

قال ابن تيمية : وأما خواص الناس فقد يعلمون عواقب أقوام بما يكشفه الله لهم ، لكن ليس هذا مما يجب التصديق العام به فإن كثيراً من يظن به أنه حصل له هذا الكشف يكون ظاناً في ذلك ظناً لا يعني من الحق شيئاً ، وأهل المكافحة والمخاطبات يصيرون تارة ويخطئون أخرى كأهل النظر والاستدلال في موارد الاجتهاد ولهذا وجوب عليهم جميعهم أن يعتضموا بكتاب الله وسنة رسوله وأن يزدواجوا مواجهتهم ومشاهدتهم وأرائهم ومعقولاتهم بكتاب الله وسنة رسوله لا يكتفوا بمجرد ذلك ، فإن سيد المحدثين المخاطبين الملهمين من هذه الأمة هو عمر بن الخطاب رض ، وقد كان تقع له وقائع يردها عليه رسول الله ص ... ولهذا أوجب على جميع الخلق اتباع الرسول ص وطاعته في جميع أمورهم الباطنة والظاهرة ، ولو كان أحد يأتيه من الله ما لا يحتاج إلى عرضه على الكتاب والسنة لكان مستغنياً عن الرسول في بعض دينه.^(٦٠)

هذا وقد غلا الصوفية في الفراسة حتى جعلوها مصدراً من المصادر الأساسية للمعرفة حتى حكموها في أمور الديانة مع أن صاحب الفراسة وإن كانت إيمانية لا يعرف صدقها إلا بوقوعها وجزمه بمجرد الواردات يحتاج إلى عرضه على الشعري لحكم عليه بالنفي أو الإثبات والحق أو الباطل وغاية الأمر إن لم يدل الدليل على أنه باطل أو حق أن تكون الفراسة من المرجحات ، ولذلما لم يعرف أن النبي ص حكم بفراسة في مال أو عرض أو نفس أو نسب أو عقل بل بالبيانات والشهود وغاية الفراسة أن تكون أمارة ظنية لا تصل إلى مقام الدليل من حيث دلالته على إثبات الحكم فلا تصلح للاستقلال بالحكم في أمر

^(٦٠) ابن تيمية ، مجموعة الرسائل والمسائل ، ج ١ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

شرعى أو قدرى بل لا بد من عرض ما دلت عليه على نصوص الكتاب والسنة وما دل عليه معقولها.

الخاتمة :

ما سبق تبيّن لنا المصادر التي اتبّعها بعض الصوفية وجعلوها أساس التلقى عندهم ، وأهملوا ما وراءها من المصادر الثابتة عند بقية أهل السنة مما ثبت بالدليل القاطع من الكتاب والسنة وعمل الصحابة رضوان الله عليهم.

وأهل السنة كابن القيم لم ينكروا هذه المصادر كالكشف والذوق والوجود والإلهام والفراسة ، ولكنهم لم يغالوا فيها أو يجعلوها متقدمة على النقل والسماع ، ومن خلال هذه المساجلات يمكن أن نجعل الخاتمة متضمنة النتائج التالية التي تنحصر في بيان مواضع النزاع بين هؤلاء المتصوفة وموقف ابن القيم من هذه الأمور ، على النحو الآتي :

(١) يزعم بعض الصوفية أن الإلهام أو الكشف دليل شرعى ، يؤخذ منه الحكم بالحل أو الحُرمة أو الكراهة أو الوجوب ، أو الاستحباب ، فإن الإلهام عندهم حُجة معتمدة ، ودليل المرجح. أما أهل السنة فغيرون ألا حكم ولا حجة ولا دليل راجح إلا من الكتاب والسنة. أما إذا وافق الإلهام والكشف الشرع فلا بأس بقبوله وإذا خالف ما جاء في الكتاب والسنة فهو باطل ولا ينظر فيه.

(٢) يُضفي هؤلاء المتصوفة - بناءً على ما سبق - على إلهاماتهم وكشوفهم العصمة والقداسة ، فهي الصواب الذي لا يحتمل الخطأ بحال ، على خلاف أقوال الأئمّة المجتهدين التي تحتمل الخطأ والصواب. وهذا خطأً فكل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ. فلا معصوم في البشر غير الأنبياء والمرسلين. ولا قداسة إلا للنص الشرعي.

(٣) يقلل هؤلاء الصوفية من شأن العلم الشرعي ، علم الكتاب والحديث ، والفقه ، وغيرها ، الذي اعتبر طلبه فريضة على كل مسلم ومسلم ، ويذّعون أن لا حاجة لهم إلىأخذ العلم من أساليبه ووسائله التقلية ،فهم يأخذونه مباشرة عن الله تعالى لا عن طريق الرجال : ”أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي

الذي لا يموت“ ، ”حدثني قلبي عن ربي“^(٦١) وهذا من أكبر الأخطاء ، وهو أصل البلاء الذي وقعوا فيه ، إذ إن الجهل سبب في الوقوع في مصايد الشيطان ومجانبة الطريق.

(٤) فرق الصوفية بين ”الشريعة“ و ”الحقيقة“ ، أو بين ”العلم“ الذي يأتي به ”النص“ و ”المعرفة“ التي يأتي بها ”الكشف“ ، واعتبار الأولى من نصيب العوام والأخرى من حظ الخواص. وهذا من تلبيس إبليس عليهم .

(٥) اعتبروا أن الكشف هو غاية الغايات التي يسعون إليها ، ومحرصنون عليها كأنما أصبحت عبادتهم ومجاهدتهم ، ابتغاء الكشف لا ابتغاء وجه الله. والأصح أن يجعل وسيلة لتصحيح المسار وأن يكون إماما لصاحبه.

(٦) خلطوا بين معنى الكشف والفراسة فلكل خصائصه التي تميزه عن غيره ، وقد وضحه ابن القيم من خلال مناقشاته السابقة.

هذا ويوصي الباحثان بأهمية دراسة هذا الموضوع بصورة أوسع للوصول لرؤيه متفق عليها حول مصادر التلقى في شريعتنا السمحنة ، ولأن كل أصول الدين وفروعه قائمة على هذه المصادر.

فهرس المصادر والمراجع :

- [١] ابن الجوزي ، تلبيس إبليس ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، سنة ١٤٠٣ هـ.
- [٢] ابن القيم ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية [ت ٧٥١ هـ] ، إغاثة اللھفان من مصايد الشيطان تحقيق محمد حامد الفقي ، مكتبة المعارف ، الرياض ، المملكة العربية السعودية.
- [٣] ابن القيم ، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، تحقيق عماد عاص ، دار الحديث - القاهرة ، ط١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م. وطبعه دار الكتاب

^(٦١) العبارات منسوبة للإمام أبي يزيد البسطامي والإمام ابن عربي. انظر الذهبي ، محمد السيد حسين (المتوفى : ١٣٩٨ هـ) ، تفسير ابن عربي للقرآن حقيقته وخطره ، الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية. ص ٢٣ . (نقلًا من كتاب الفتوحات المكية لابن عربي).

- العربي - بيروت ، بتحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي ، الطبعة : الثالثة ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- [٤] ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ونشر ولاية العلم والإرادة ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- [٥] ابن تيمية ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، مجموعة الرسائل والمسائل لأبن تيمية - تعليق رشيد رضا ، لجنة التراث العربي ، [د.ط] [د.ت].
- [٦] ابن تيمية ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، مجموعة فتاوى ابن تيمية ، تحقيق عبد الرحمن محمد قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، سنة ٢٠٢٨هـ.
- [٧] ابن تيمية ، بغية المرتاد في الرد على المفلسفه والقراطمه والباطنية ، موسى الدويش ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ، ط ٣ ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- [٨] ابن تيمية ، درء تعارض العقل ، تحقيق : الدكتور محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، ط ٢ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- [٩] ابن خلدون ، المقدمة ، دار القلم ، ط ٥ ، ١٤١٩هـ - ١٩٨٤م.
- [١٠] ابن حجر ، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني [المتوفى : ٨٥٢هـ] ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد عبد المعيد ضان ، مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر أباد ، الهند ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- [١١] ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق أحمد عامر أحمد حيدر ، ط ٢ ، ٢٠٠٩م ، دار الكتب العلمية بيروت.
- [١٢] البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري ، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، ط ١٤٢٢هـ.
- [١٣] الترمذى ، أبو عيسى ، السنن ، تحقيق وتعليق ، أحمد محمد شاكر [ج ١ ، ٢] ، محمد فؤاد عبد الباقي [ج ٣] ، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر

الشريف ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر ، ط ٢ ، ١٣٩٥ هـ -

١٩٧٥ م.

[١٤] التهانوي ، محمد على ، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تقديم وإشراف ومراجعة رفيق العجم ، تحقيق على دحروج ، مكتبة لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٦ م.

[١٥] الجرجاني ، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني [ت : ٨١٦ هـ] ، كتاب التعريفات ، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

[١٦] الذهبي ، محمد السيد حسين [المتوفى : ١٣٩٨ هـ] ، تفسير ابن عربي للقرآن حقيقته وخطره ، الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية.

[١٧] الزبيدي ، محمد بن عبد الرزاق الحسني ، أبو الفيض ، الملقب بمرتضى ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، دار الهداية.

[١٨] الزركلي ، خير الدين بن محمود بن علي بن فارس ، الزركلي الدمشقي [المتوفى : ١٣٩٦ هـ] ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة عشر - ٢٠٠٢ م.

[١٩] السمعاني ، أبو مظفر ، منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي بن الشافعي [ت ٤٨٩ هـ] ، الانتصار لأصحاب الحديث ، تحقيق محمد بن حسين بن حسن الجيزاني ، مكتبة أضواء النار ، السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

[٢٠] الشعراوي ، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ، ط دار إحياء التراث العربي بغداد.

[٢١] الطوسي ، أبو نصر عبد الله علي السراج الطوسي ، اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي ، تحقيق عماد زكي البارودي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة مصر بدون ط ، ت.

[٢٢] العجلوني ، إسماعيل بن محمد الجراحى [المتوفى : ١١٦٢ هـ] ، كشف الخفاء ومزيل الإلbas عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، مكتبة القدسية ، لصاحبتها حسام الدين القدسي - القاهرة ، ١٣٥١ هـ .

- [٢٣] الغزالى ، أبو حامد الغزالى ، إحياء علوم الدين ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- [٢٤] الغزالى ، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي [المتوفى : ٥٠٥ هـ] ، المنقذ من الضلال ، تحقيق عبد الحليم محمود ، دار الكتب الحديثة ، مصر.
- [٢٥] الفراهيدى ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تيم الفراهيدى البصري ، كتاب العين ، تحقيق مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال.
- [٢٦] الفيروز أبادى ، محمد بن يعقوب الفيروز آبادى ، القاموس المحيط ، دار الفكر ، بيروت ، ط. ٢.
- [٢٧] القشيري ، أبو القاسم عبد الكري姆 بن هوازن القشيري ، الرسالة القشيرية ، تحقيق عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ، محمود بن الشريف ، المكتبة الوقفية ، القاهرة ، مصر ، بدون ت ، ط.
- [٢٨] مجلة البحوث الإسلامية - مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، المملكة العربية السعودية ، ١٣٩٥ هـ.
- [٢٩] مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النسابوري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ب.ت.
- [٣٠] النسائي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني ، [المتوفى : ٣٠٣ هـ] ، السنن الصغرى للنسائي ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ، ط ١٤٠٦ ، ٢.
- [٣١] النسائي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني ، النسائي ، السنن الكبرى ، حقيقه وخرج أحاديثه : حسن عبد المنعم شلبي ، أشرف عليه : شعيب الأرناؤوط ، قدم له : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.